أَبُو عَبدِ الله مُحمَّد بن الحَاج (دِراسَةٌ تَارِيخيَّةٌ)

م.م. كاظم علي زبار العماري

جامعة بابل / كلية التربية الأساسية / قسم التاريخ

bas224.kadhum.ali@uobabylon.edu.iq

المُلخَّص:

أبو عبد الله محمد بن الحاج داود من قبيلة (لمتونة) وهو أحد القادة البارزين في الجيش المرابطي، إذ برز دوره في الوقت الذي تمكن فيه المرابطين من القضاء على دول الطوائف وتوحيد بلاد الاندلس تحت زعامتهم.

فضلاً عن دوره المهم في انجاح وتمكين الدولة المرابطية في بسط سيطرتها على بلاد الاندلس. وما حققه أبو عبدالله محمد بن الحاج من نجاحات في الجوانب الإدارية والعسكرية في المهاجمة والتصدي للممالك النصرانية لإيقاف التمدد النصراني القائم على التهجير والقتل ومصادر الاراضي، اذ قدَّمَ أبو عبدالله محمد بن الحاج حياته شهيداً من أجل الدفاع عن دولة الإسلام في بلاد الأندلس أرضاً وشعباً.

الكلمات المفتاحية: أبو عبد الله، محمد الحاج، الأندلس، المرابطين، دول الطوائف.

Abu Abdullah Muhammad ibn al-Hajj
(A Historical Study)

Kadhim Ali Zabar Al-imari
University of Babylon / College of Basic Education / Department of History

Abstract

Abu Abdullah Muhammad bin Al-Hajj Daoud, from the Lamtuna tribe, was one of the prominent leaders in the Almoravid army, as his role became prominent at the time when the Almoravids were able to eliminate the Taifa states and unify the lands of Andalusia under their leadership.

In addition to his important role in the success and empowerment of the Almoravid state in extending its control over the lands of Andalusia, Abu Abdullah Muhammad ibn al-Hajj achieved successes in the administrative and military aspects in attacking and confronting the Christian kingdoms to stop the Christian expansion based on displacement, killing and confiscation of lands, as Abu Abdullah Muhammad ibn al-Hajj gave his life as a martyr in defense of the Islamic state in the lands of Andalusia, both the land and the people.

Keywords: Abu Abdullah, Muhammad al-Hajj, Andalusia, Almoravids, Taifa kingdoms.

المُقدِّمَةُ:

يعد أبو عبدالله محمد بن الحاج من أبرز القادة المرابطين الذي برز دوره في الوقت الذي تمكن فيه المرابطين من القضاء على دول الطوائف وتوحيد بلاد الاندلس تحت زعامتهم.

تأتي أهمية الموضوع لتسليط الضوء على دور أبو عبدالله محمد بن الحاج في انجاح وتمكين الدولة المرابطية في بسط سيطرتها على بلاد الاندلس. وما حققه أبو عبدالله محمد بن الحاج من نجاحات في الجوانب الإدارية والعسكرية في المهاجمة والتصدي للممالك النصرانية لإيقاف التمدد النصراني القائم على التهجير والقتل ومصادر الاراضي، اذ قدم عبدالله بن محمد الحاج حياته شهيداً من أجل الدفاع عن دولة الإسلام في بلاد الأندلس أرضاً وشعباً.

أما مشكلة البحث، فتتمثل في السؤال الرئيس: ما هو دور أبو عبد الله محمد بن الحاج من تمكين الدولة المرابطية في بسط سيطرتها على الأندلس؟

أما عن هدف البحث فيتلخّص في معرفة إنجازات أبو عبد الله محمد بن الحاج في بلاد الأندلس، ودوره في إيقاف التمدد النصراني.

وفي هذا السياق، يعتمد البحث على منهجية تاريخية تحليلية، إذ يتم عرض الأحداث التاريخية وتحليلها في ضوء المصادر التاريخية المعتبرة.

المَبحَث الأَوَّل: الوَضع في الأندلس عشية بروز دور أبو عبد الله بن الحاج

اسمه: أبو عبد الله محمد بن الحاج داود من قبيلة لمتونة وأحد القادة البارزين في الجيش المرابطي[1]. ولم تذكر المصادر التاريخية معلومات وافية عن نشأته وتفاصيل حياته الشخصية.

شهدت بلاد الاندلس بعد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري انقسام البلاد إلى دويلات متصارعة فيما بينها عرفت تاريخياً بدويلات الطوائف التي دأب ملوكها على الاستعانة بملوك النصارى ضد بعضهم البعض من أجل الاستحواذ على ممتلكات بعضهم، في المقابل كانت تتعاظم قوة المرابطين في بلاد المغرب، ثم دفعت الاحداث المتدهورة في بلاد الاندلس بسكانها إلى الاستعانة بقوة المرابطين على أمل الخلاص من واقعهم المُزري[2].

تمزق بلاد الاندلس من الجانب الإقليمي إلى عدة مناطق نشأت فيها دويلات ومنها قرطبة في وسط الاندلس وحكمها بني جهور من سنة (422– 463هـ) ثم بني عباد، ومملكة سرقسطة حكمها بني

هود من سنة (414- 503هـ) في الثغر الأعلى، ومملكة طليطلة في الثغر الأوسط حكمها بنو ذي النون (400- 487هـ)، ومملكة أشبيلية حكمها بني عباد (414- 484هـ)، وفي جنوب الاندلس مملكة غرناطة حكمها بنو زيري (400- 483هـ)، وحكم العامدين مدينة بلنسية من سنة (412- 457هـ)، ثم خضعت إلى حكم بنو عباد سنة (457- 487هـ)، ثم سيطر النصارى عليها من سنة (487- 495هـ)، عندها تمكن المرابطين من تحريرها[3].

أعلن أغلب ملوك الطوائف ولائهم وتبعيتهم لملوك النصارى، لكن ذلك لم يشف ملوك النصارى عن مواصلة سياستهم للانقضاض على الأراضي الإسلامية فكانت مدينة طليطلة في طليعة المدن الاندلسية التي طالتها أيادي النصارى، إذ أقدم الفونسو السادس على حصار المدينة لمدة سبع سنوات حتى تمكن من احتلالها سنة (478هـ)، واحدث سقوط طليطلة دوياً هائلاً في العالم الإسلامي، واقدم سكانها على الهجرة منها بعد ان تعرضوا إلى أشد أنواع العنف والتنكيل من قبل النصارى، وعلى اثر سيطرة الفونسو السادس على طليطلة بدأ بتغيير سياسته تجاه ملوك الطوائف من فرض الاتاوات إلى أخذ الأراضي بعد ان تبين له انه قادر على التغلب على جميع ملوك الطوائف، فأخذ بمراسلة صاحب بطليوس وأشبيلية يأمرهم بترك بعض الحصون والتنازل له عنها[4].

على أثر تلك الاحداث وجه بعض ملوك الطوائف أنظارهم نحو المغرب العربي حيث يوسف بن تاشفين، وكان في مقدمة ملوك الطوائف المعتمد بن عباد الذي أخذ على عاتقه عقد اجتماع يضم قضاة يمثلون الدويلة التي بعثته للاجتماع للتشاور وتشكيل بعثة تذهب للمغرب العربي وتلتقي بيوسف بن تاشفين وتعرض عليه حال الاندلس وما يتعرضون له من النصارى وطالبين منه المساعدة، وكان ذلك في سنة (479هـ)[5].

ولا ريب فيه ان الوفد كان يحمل في جعبته عدة تعاليم طالعون لا يتم دون شرط، فحدث بين الطرفين مناقشات ومراوغات[6]. اجتمع يوسف بن تاشفين بحاشيته من المستشارين والفقهاء والوزراء فكان الرأي الجواز إلى بلاد الاندلس يرسم الجهاد وقبله ان يتنازل المعتمد بن عباد عن الجزيرة الخضراء لتكون قاعدة للجيش المرابطي، فلم يتردد المعتمد في الموافقة على طلب يوسف بن تاشفين فجمع القاضي والفقهاء واختط عقد هبة الجزيرة الخضراء لابن تاشفين وتسليمها له، كما وأرسل المعتمد لابنه يزيد الراضي الذي كان يحكم الجزيرة الخضراء بأخلائها وتسليمها للمرابطين[7].

عندما علم ملك النصارى ألفونسو السادس باستنصار أهل الاندلس بالقائد يوسف بن تاشفين بعث إليه بسالة يتوعده ويوبخه ان تدخل في أمر الاندلس، فكان جواب القائد يوسف بن تاشفين في ظهر

رسالته كاتباً له " جوابك يا أذفونش –ألفونسو السادس– ما تراه، لا ما تسمعه إن شاء الله "، واردف الكتاب ببيت من قصيدة المتنبي، قائلاً[8]:

ولا كُتْـــــبَ إلا اَلمشَـــــرفِيَّةُ والَقنَـــــا ولا رُسُـــلٌ إلا الخمـــيسُ الـــونيس

أمرَ يوسف قواته من جميع انحاء المغرب العربي والعبور إلى بلاد الاندلس للجهاد في سبيل الله ونصرة مسلمي الاندلس، فتم له ذلك وعبر مع جيشه بحر الروم (البحر المتوسط) ونزل في الجزيرة الخضراء، وحلى فيها الظهر واستقبله سكانها بالترحاب وقدموا له المؤنة، وأخذ يوسف بتحصين الجزيرة وترسيم أسوارها وتزويدها بالسلاح[9].

حينها كان ألفونسو السادس فارضاً حصاراً على حصن الليط، فعندما وصلت لمسامعه عبور جيش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين إلى بلاد الاندلس أنهى الحصار عن الحصن ورجع لمملكته وأخذ بأرسال الرسل إلى الممالك النصرانية يدعوهم لتوحيد الموقف وأرسال جنودهم لمحاربة المسلمين[10].

عند الجزيرة الخضراء التقى المعتمد بن عباد بيوسف بن تاشفين وتوجه يوسف نحو مدينة أشبيلية وأقام فيها ثلاثة أيام ومن هناك بدأ بمراسلة ملوك الاندلس لتحشيدهم لجهاد النصارى فأجابه البعض مثل صاحب غرناطة عبد الله بن بلقين، واعتذر البعض مثل ابن حماد صاحب (العلل المرية)، وأكمل بن تاشفين سيره وعند كل مدينة يلتحق به عدد من المتطوعين ويقدم صاحب المدينة التي يمر بها الجيش الإسلامي على المؤن حتى وصل الجيش إلى سهل في شمال شرق مدينة بطليوس يعرف بالزلاقة، عسكر عنده الأمير بن تاشفين ونظم جيشه وقسمه إلى المقدمة التي تضم أغلب الاندلسيين وجعل على قيادتها المعتمد بن عباد، والميمنة التي جعل عليها المتوكل بن الافطس، وعلى الميسرة أهل الشرق، وسائر أهل بلاد الاندلس في الساقة، وكان جيش المسلمين قد بلغ أربعة وعشرين ألف مقاتل[11].

وفي الطرف الاخر كان جيش النصارى بقيادة ألفونسو السادس الذي هو الاخر قسم جيشه إلى قسمين، وتقدم الرهبان والقساوسة جيش النصارى وهم ينشدون لإذكاء الحماس الديني لدى الجيش النصراني الذي بلغ عدده بما يزيد عن ستين ألف مقاتل[12]. وكما تقتضيه الشريعة الإسلامية عرض على ألفونسو إحدى الثلاث الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الهرب.

فغضب الفونسو من ذلك وأراد خدع المسلمين في تحديد يوم المعركة، إذ كتب إلى الأمير يوسف: " **إن غداً يوم الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم وبعده السبت يوم عيد اليهود وهم كثير**

في محلتنا، وبعده الاحد عيدنا فنحترم هذا الأعياد ويكون اللقاء يوم الاثنين "[13]، فلن تنطلي على المسلمين خديعة الفونسو وتأهب الجيش للقتال وبالفعل هجم الفونسو بقواته من يوم الجمعة ودرات معركة رهيبة استبسل فيها المسلمون في وقت كان المسلمين على أعتاب خسارة المعركة لولا تماسك الجيش وقوة قيادته الجهادية التي بثت الرعب والذعر في نفوس الجيش النصراني حتى انتهت المعركة بانتصار المسلمين في يوم الجمعة 12 رجب لسنة (479هـ – 1086م)، وانهزم الفونسو السادس خائباً إلى مدينة طليطلة[14].

بعد تحقيق الانتصار عاد يوسف بن تاشفين إلى أشبيلية وعقد الاجتماع برؤساء الاندلس وبين لهم ان ضعفهم هو سبب صراعهم وحثهم على الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم النصراني المشترك الذي يهدد وجود المسلمين في بلاد الاندلس، ثم ترك حماية من الجيش المرابطي لحماية ثغور المسلمين من الهجمات النصرانية مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة القائد سير بن أبي بكر اللمتوني وعاد يوسف بن تاشفين إلى بلاد المغرب[15].

وينقل لنا ابن بلقين صاحب غرناطة والحاضر في الاجتماع، صورة حية لما وصل إليه رؤساء الاندلس من اختلاف الأنفس، قائلاً: " **أخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده، وهو قد أطلع عياناً وسماعاً من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجهاً لبقائنا في الجزيرة** "[16]، أيقن الأمير يوسف ان من الصعب ان يتخلى ملوك الطوائف عن نزعتهم الاختلافية وان وجودهم يهدد الوجود الإسلامي في بلاد الاندلس، وكان يرى ان ما أراده إبعاد الخطر عن بلاد الاندلس فلابد من الخلاص من ملوك الطوائف، إذ عندما كان يشتكي له الرعية من بلاد الاندلس كان جوابه لهم: " **لم نأت لهذا والسلاطين أعلم بما يصنعون في بلادهم** "[17].

وفي عام (481هـ) تعرضت المدن الاندلسية إلى هجمات القوات النصرانية وعبث النصارى بحصن الليط مما دفع المعتمد بن عباد وفقهاء الاندلس الاستنجاد بالأمير يوسف بن تاشفين مرة أخرى، فعبر يوسف في ربيع الأول من نفس العام والتف حوله أغلب جيوش أمراء الطوائف وسار نحو حصن الليط وفرض عليه الحصار لمدة أربعة أشهر لكن على أثر العوامل المناخية الشتائية ومناعة الحصن لم يتمكن من دخوله، وعلى الفور بعد انتهاء الحصار تمكن الفونسو السادس من نجدة سكان الحصن النصارى واخلائهم، وخلال تلك الاحداث ووجوده في الاندلس اكتشف يوسف بن تاشفين حجم الخلافات وتخاذل الامراء الطوائف واجتماعهم ظاهرياً في وجه مخاطر النصارى، كما واكتشف خيانتهم بتعاونهم

مع ملوك النصارى وامتناعهم عن تقديم المؤنة للجيش المرابطي لذا قرر يوسف الرجوع إلى بلاد المغرب[18].

توصل بن تاشفين من معطيات الاحداث في الاندلس انه لابد من التخلص من ملوك الطوائف أذا ما أراد بقاء وحماية المسلمين في بلاد الاندلس، لذا قرر خلعهم وتوحيد بلاد الاندلس تحت سيادة المرابطين، وعزز الأمير يوسف موقفه بحصوله على فتاوى من علماء المشرق أمثال الطرطوشي والغزالي التي أعطت الصبغة الشرعية لخلعه ملوك الطوائف، كمل حصل على تأييد فقهاء الاندلس وعامة أهلها الذين لطالما كرروا شكواهم ضد مكر ملوك الطوائف[19].

قرر يوسف بن تاشفين العبور إلى بلاد الاندلس سنة (483هـ) دون استدعاء من امرائها هذه المرة، وتوجه فور عبوره إلى مدينة طليطلة وفرض عليها الحصار، وبعدها توجه نحو قلعة رباح وشدد عليها الحصار، لقطع الاتصال بين الممالك النصرانية في الشمال وبين امراء الطوائف، ثم رسم خطة للسيطرة على المدن الاندلسية وقسم جيشه إلى فرق، إذ أرسل إحداها لاحتلال مدينة غرناطة وإخراج صاحبها عبد الله بن بلكين وأصحبه معه إلى بلاد المغرب[20].

وبعد ان تمكنت الجيوش المرابطيّة من فرض سيطرتها على مدينة غرناطة توجهت نحو مدينة مالقة التي كانت تحت سلطة تميم أخ عبد الله بن بلقين، وهو الآخر تم نقله إلى بلاد المغرب[21].

أكمل يوسف بن تاشفين خطته في إتمام السيطرة على المدن الاندلسية، إذ يتضح ذلك من قوله: " **إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها... ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم –يعني الروم– خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش؛ إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته** "[22].

لم يقيم يوسف بن تاشفين طويلاً في مراكش بعد عودته من الاندلس فسار نحو مدينة سبته ومن هناك سير العساكر إلى بلاد الاندلس، فجازت القوات المرابطيّة بحر الروم –البحر المتوسط– فجاء مدينة مرسيه فملكوها ثم توجهت القوات المرابطيّة إلى مدينة شاطيه ومدينة دانيه وسيطروا عليها، ثم توجهوا نحو مدينة بلنسيه وملكوها[23].

قبل التوجه إلى مدينة اشبيلية ثم تقسيم الجيش المرابطي إلى أربعة اقسام والذي كان على رأسه القائد سير بن أبي بكر اللمتوني ابن عم يوسف بن تاشفين، إذ توجه سير اللمتوني نحو مدينة اشبيلية

وفرض عليها الحصار، وتأمل صاحب اشبيلية المعتمد بن عباد الحصول على مساعدة النصارى لأنهاك قوى المرابطين لكن دون جدوى، حيث تمكن الجيش المرابطي من دحر القوات النصرانية، وعاد سير ليفرض الحصار على اشبيلية حتى تمكن من دخولها وأسر المعتمد مع عائلته ونفيه إلى اغمات بالقرب من مراكش، وضل محبوساً هناك حتى وفاته عام (488هـ)[24].

عندما تمكن القائد سير اللمتوني من فتح مدينة اشبيلية توجه القسم الثاني من الجيش المرابطي بقيادة أبي زكريا بن واسنو نحو مدينة المرية واحتلها، ثم أكمل القائد سير بن أبي بكر مسيره نحو مدينة بطليوس وكان عليها عمر بن الافطس فنازله وتمكن من دخولها، وارسل جيش ثالث بقيادة جوذر الهاشمي إلى رنده ودخلها، وكان على القسم الرابع من الجيش المرابطي القائد أبو عبد الله بن الحاج الذي أوكلت له مهمة فتح قرطبة التي كان يحكمها الفتح بن المعتمد بن عباد والملقب بالمأمون فنازله وتمكن بمساعدة كتيبة اخرى من الجيش المرابطي من دخول حاضرة الخلافة قرطبة سنة (484هـ)[25].

المَبحَث الثَّاني: أَبو عَبد الله بن الحَاج ودَورَهُ العَسكَريّ والسِّياسِيّ

اعتمد المرابطون في تغيير البنية السياسية لبلاد الاندلس على قادة أكفاء نالوا ثقة قيادة المرابطية واعتمد عليهم في قيادة الجيوش وإدارة المدن الاندلسية وصد وإبعاد خطر الممالك النصرانية، وكان من بين أولئك القادة أبو عبد الله محمد الحاج، الذي برز دوره عندما قاد الجيش المرابطي لمنازلة قرطبة التي كان يحكمها الفتح بن المعتمد بن عباد الملقب بالمأمون، إذ اتخذ المأمون جميع الإجراءات الأمنية التي تساعد في صد الهجوم المرابطي بقيادة أبو عبد الله الحاج، كما وأبعد المأمون زوجته وعائلته وأمواله المنقولة عن مركز دائرة الصراع مع المرابطين، إذ ارسلهم إلى جنوب غرب قرطبة في حصن المدور الذي زوده بالمؤن والواقع على نهر الوادي الكبير، لتمكين زوجه وعائلته من الهروب نحو ملك قشتاله للاحتماء به عند وقت الهزيمة، ولمكانة قرطبة كخط دفاعي عن اشبيلية أكد المعتمد على ابنه المأمون بالدفاع على المدينة حتى الموت، إذ حث ابنه على الصبر والثبات قائلاً له: " **لا تجزع فالموت أهون من الذل وليس السلطان إلا من القصر إلى القبر** "[26].

فرض أبو عبد الله الحاج الحصار على مدينة قرطبة وجاءه مدد بفرقة مرابطية قادمة من مدينة جيان بقيادة طي بن إسماعيل وبالرغم من ذود المأمون بالدفاع عن المدينة لكن الأوضاع داخل المدينة كانت تجري بما لا يشتهي المأمون فالسكان ناقمون على سياسة بني عباد مما دفعهم بقبول القادم الجديد وتعاونوا معه واحدثوا الشغب داخل المدينة، حتى استغل المرابطون تلك الفوضى وتمكنوا من إحداث فتحات في أسوار قرطبة ودخلها المرابطين بقيادة أبو عبد الله بن الحاج في نهار الأربعاء في الثالث من

شهر صفر سنة (484هـ) 26 آذار سنة (1091م) بعد حصار استمر ثلاثة أشهر، إذ تمكن الجيش المرابطي بقيادة أبو عبد الله بن الحاج من قتل المأمون وقطع رأسه وطاف به في أزقة قرطبة مع وزيره ابن زيدون وابن بكر[27].

وفي عام (492هـ) تعرضت مدن الاندلس إلى هجوم من قبل مملكة قشتاله تمكن خلاله النصارى من السيطرة على قلعة أيوب ومحاصرة مدينة سالم مما دفع يوسف بن تاشفين من تجهيز حملة عسكرية شاركت فيها قبائل المرابطين والعرب[28] بقيادة أبو عبد الله بن الحاج وقد اصطحبه القائد محمد بن فاطمة وعند بلدة كمنشرة[29] ومصادر اخرى تسميها كونسويجرا دارت معركة شرسة استبسل فيها المسلمون محققين بثباتهم الانتصار على جيش النصارى وانهزمت فلول جيشهم إلى طليطلة وجيش المسلمين بقيادة أبو عبد الله بن الحاج تلاحقه حتى دخل الجيش النصراني إلى مدينة طليطلة، فحاصره المسلمين لمدة سبعة أيام ثم انسحبوا نحو مدينة قرطبة، وأثلج ذلك الانتصار قلوب المسلمين وأميرهم يوسف بن تاشفين وقائد الجيش أبو عبد الله بن الحاج[30].

اشترك القائد أبو عبد الله بن الحاج بصحبة الأمير سير بن أبي بكر بالهجوم الذي قاده الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين على مدينة طليطلة في سنة (493هـ) الذي تمكن الجيش الإسلامي من خلاله فرض الحصار على مدينة طليطلة وشن الغارات على المناطق المجاورة لها، ثم تراجع الجيش الإسلامي بعد ان أدخل الرعب في قلوب النصارى[31].

برز دور أبو عبد الله بن الحاج عندما تعرضت إحدى ضواحي مدينة اشبيلية وتعرف بمقاطع إلى هجوم نصراني وذلك بعد ان شاع خبر مرض الأمير يوسف في بلاد الاندلس فأراد الفونسو استغلال مرض الأمير يوسف بن تاشفين للهجوم على اشبيلية فجهز قوة نصرانية مؤلفة من ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس عدا المشاة للثأر من المسلمين على اثر خسائره السابقة فما كان من القائد ابن الحاج إلا تجهيز قوة عسكرية بعد ان وصلته رسالة طلب العون من اشبيلية والتوجه من غرناطة إلى مدينة اشبيلية لنجدة الأمير سير بن أبي بكر في صد الهجوم النصراني، وبالفعل جنى المسلمون تعاونهم بتحقيق الانتصار على جيش النصارى وتم قتل منهم ألف وخمسمائة شخص وأجبروا على الهزيمة وذلك عام (498هـ)[32].

لم يقتصر دور محمد بن الحاج على الجانب العسكري فقد كان له دور بارز في الإدارة إذ اصبح والياً على مدينة قرطبة في السنوات الأخيرة من حياة الأمير يوسف بن تاشفين (454- 500هـ) فعندما ولي علي بن يوسف بن تاشفين الامارة بعد أبيه فقد رام أبو عبد الله بن الحاج الخروج والقيام على سلطه

علي بن يوسف، ثم دفع ابن الحاج امرته وتلكأ في البيعة لعلي " مالاه الملأ من أهل قرطبة مشيختها وفقهائها سنة (500هـ) "[33] لكن الأمير علي بن يوسف سارع بالقبض على ابن الحاج والتنكيل به ومحاسبته مما أدى إلى افساد تدبيره وبسط سيطرة الأمير علي على المدينة، ثم رضا عنه علي بن يوسف وشغل محمد بن الحاج منصب اداري آخر، إذ كان من ضمن قائمة التغييرات الإدارية التي قام بها الأمير علي بن يوسف إذ أصبح أبو عبد الله بن الحاج والياً على مدينة فاس في بلاد المغرب العربي وما حولها لمدة ستة أشهر وذلك في سنة (500هـ)، ثم تقلد أبو عبد الله محمد بن الحاج عمل اداري اخر وهو تقليده ولاية مدينة بلنسيه وشرقي بلاد الاندلس من قبل الأمير علي بن يوسف[34].

احكمت القوات المرابطية بالتتابع قبضتها على المدن الاندلسية ومنها مدينة (لاردة) المحاذية لمدينة سرقسطة مما دفع صاحب سرقسطة المستعين بن هود الشعور بالخطر المرابطي القادم، فتوجه إلى قوة اخرى يستعين فيها على المرابطين، فعاد إلى حليفه القديم النصراني السير الكمبيادرو الذي جمعه معه خطر المرابطين، وتم عقد الحلف بينهم وجاءت القوات النصرانية إلى مدينة سرقسطة وعسكرت عند ضفة النهر الأخرى، وفي الوقت ذاته تعرضت مملكة سرقسطة إلى هجوم من قبل مملكة ارغون النصرانية، كما وكان حليفه السير الكمبيادرو قد أشتغل عنه بأمر السيطرة على بلنسيه، مما دفعت تلك الاحداث بالمستعين اللجوء إلى اتباع سياسة الترضية والمداراة مع المرابطين وعلى أساس هذا المبدأ أرسل المستعين ابنه عبد الملك إلى الأمير يوسف بن تاشفين محملاً بالهدايا، الذي كان بقرطبة لإعلان البيعة لأبنه الأمير علي بن يوسف وذلك في سنة (496هـ)[35].

وفي سنة (503هـ) استشهد المستعين بن هود اثناء صد هجوم القوات النصرانية عند بلدة بلتيرة (فالتيرا) فخلفه ابنه عبد الملك وتلقب بعماد الدولة، وحصل على بيعة مشروطه من اهل سرقسطة بإنهاء الحلف مع النصارى، وتنظيف جيشه منهم، وعدهم عماد الدولة بتحقيق مطالبهم لكنه لم يفِ بوعوده مما دفع سكان سرقسطة بأرسال اعيانها إلى مراكش طالباً من الأمير علي بن يوسف خلع بني هود والسيطرة على المدينة، كالمعتاد عند القيادة المرابطية استشارة أهل الرأي والفقهاء بالأمر فحصل على فتوى تجيز له تحقيق رغبة سكان سرقسطة، وفي خضم تلك الاحداث برز دور القائد ووالي مدينة بلنسيه أبو عبد الله محمد بن الحاج إذ دفعت القيادة المرابطية لابن الحاج انجاز المهمة فجهز حملة عسكرية وتوجه من مدينة بلنسيه إلى مدينة سرقسطة، وقبل وصوله أخذ عماد الدولة بإرسال الرسائل إلى علي بن يوسف بن تاشفين يذكره بحسن العلاقة بين ابائهم، وبين له ان من مصلحة المسلمين ان تبقى سرقسطة حاجزاً بوجه أطماع النصارى، لكن الامر كان قد قضي مما دفع بعماد الدولة مغادرة سرقسطة مع أهله وأمواله

المنقولة والهروب إلى حصن روطه المنيع، وفي صبيحة يوم السبت في العاشر من شهر ذي القعدة سنة (503هـ) وصلت الجيوش المرابطية بقيادة ابن الحاج وفتحت لها أبواب المدينة واستقبل اهل المدينة عسكر ابن الحاج بالترحاب حتى وصل قصر الجعفرية واتخذه مقراً لإدارة المدينة وبذلك انتهى ملك بني هود في مدينة سرقسطة على يد القائد أبو عبد الله محمد بن الحاج[36].

استمر محمد بن الحاج بضعة أعوام والياً على مدينة سرقسطة وخلال سنين حكمه أخذ على عاتقه مهاجمة الأراضي النصرانية بين الحين والأخر، كما ان النصارى اعتادوا على مهاجمة الأراضي الإسلامية فاستبسل ابن الحاج في التصدي للهجمات النصرانية، إذ قام الفونسو الأول (المحارب) ملك أرغون حملة عسكرية وزحف نحو مدينة سرقسطة واصطحب معه عماد الدولة ابن المستعين بن هود حتى صاروا على تخوم المدينة فخرج اليهم ابن الحاج بقواته للتصدي لهم، كما وقد وصله مدد من القوة المرابطية في بلنسيه بقيادة محمد بن عائشة مما جعلت القوة الإسلامية الفونسو المحارب ينسحب قبل بدأ المعركة بعد ان لاحظ تفوق القوة الإسلامية التي طاردته لمسافات عن مدينة سرقسطة وذلك سنة (504هـ)[37].

وفي سنة (505هـ) تعرضت مدينة سرقسطة إلى هجوم من قبل عماد الدولة المستعين بن هود الذي انطلق من مقره حصن روطه مما دفعت بأبي عبد الله بن الحاج من تجهيز حملة عسكرية والخروج لمدافعته عن المدينة إذ تمكن من هزيمته وابعاد خطره عن المدينة[38].

وفي سنة (508هـ) اشترك محمد بن الحاج مع صاحب (لاردة) القائد محمد بن عائشة بتجهيز حملة عسكرية والتوجه شرقاً نحو مملكة برشلونة إذ اخترقت القوة المرابطية أراضي المملكة وهي تستحوذ في طريقها على كل ما تجده من غنائم وسبي، حتى وصلت إلى احواز مدينة برشلونة وقد اثقلت بالغنائم والسبي، وعند ذلك قرر القائد أبو عبد الله بن الحاج العودة إلى سرقسطة وحينها أرسل الغنائم مع أحد القادة وجزء من عسكرة سالكين الطريق الكبير، وهو اتجه غرباً سالكاً طريق البرية مع مجموعه من عسكره لأنه أقرب الطرق إلى مدينة سرقسطة لكن الطريق وعر وضيق ويصعب السير فيه لذا استغل النصارى جغرافية الطريق وكمنوا لمحمد بن الحاج وبعد قتال شرس معهم انتهى باستشهاد أبو عبد الله محمد بن الحاج مع عدد من جنده ونجا من الحادثة القائد محمد بن عائشة وتمكن من العودة إلى بلاده[39].

وعندما علم الأمير علي بن يوسف بما أصاب المسلمين وما تعرض له القائد محمد بن عائشة من ذهول عين صهره زوج أخته الأمير أبا بكر بن إبراهيم بن تانلوث على مدينة بلنسيه، وسرقسطه، وطرطوشه، وكلفه بمحاربة النصارى فجهز حملة عسكرية وتوجه إلى مدينة برشلونة وخاض مع النصارى معارك عنيفة تمكن من خلالها قتل اعداداً كبيره من جيش النصارى وفرض الحصار على المدينة الذي استمر عشرين يوماً، ثم عاد بعدها الجيش الإسلامي صوب أراضيهم[40].

الخاتمة

1. يعد عبدالله بن محمد الحاج من أبرز القادة المرابطين الذي برز دوره في الوقت الذي تمكن فيه المرابطين من القضاء على دويلات الطوائف وتوحيد بلاد الاندلس تحت زعامتهم.
2. شعر النصارى بخطورة عبور المرابطين وتوحيد المسلمين، فكانت مراسلات تهديد ووعيد بين الطرفين انتهت بحدوث معركة الزلاقة وانتصار المسلمين سنة (٤٧٩هـ).
3. قرر يوسف بن تاشفين السيطرة على بلاد الاندلس بعد ان شعر بانقسام ملوك الطوائف واستحالة توحيدهم.
4. أوكلت مهمة قيادة الجيش المتوجه للسيطرة على حاضرة الخلافة الإسلامية قرطبة للقائد ابو عبدالله محمد بن الحاج.
5. تمكن ابو عبدالله محمد بن الحاج من تحقيق الانتصار على الجيش القشتالي سنة (٤٩٢هـ) عند احواز مدينة طليطله.
6. في سنة (٤٩٧هـ) قاد ابو عبدالله حمله عسكرية وتوجه من مدينة غرناطة الى اشبيلية للتصدي للهجوم النصراني على المدينة.
7. لم يقتصر عمل ابو عبدالله بن محمد الحاج على العمل العسكري.
8. تثمينا لنجاحاته جعلته القيادة المرابطية واليا على مدينة قرطبة وذلك في نهاية حكم يوسف بن تاشفين (٤٥٤ – ٥٠٠هـ).
9. أصبح ابو عبدالله واليا على مدينة بلنسيه من قبل الأمير علي بن يوسف (500 – 537هـ).
10. كان لأبو عبدالله دور في السيطرة على مدينة سرقسطه وانهاء وجود بني هود فيها.
11. خلال سنوات حكمه للمدن الأندلسية قاد ابو عبدالله حملات عسكريه هجومية ودفاعية ضد النصارى.

12. استشهد ابن الحاج اثناء مشاركته في الحملة الجهادية على مدينة برشلونة سنة (٥٠٨هـ).

الهوامش:

(1) ابن الابار، محمد بن عبد الله (ت: 658هـ)، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف – القاهرة، 1985م، ج2/ ص248 ؛ المعجم في أصحاب القاضي الامام ابي علي الصفي، دار صادر – بيروت، 1885م، ص133 ؛ عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الاندلس، مكتبة الخانجي – القاهرة، 1997م، ج3/ ص88 .

(2) المعاضيدي، خاشع، تاريخ الدولة العربية في الاندلس، جامعة بغداد، 1988م، ص149–157 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج3/ ص25 ؛ السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت، 2000م، ص251–257 .

(3) الحجي، عبد الرحمن علي، التاريخ الاندلسي، دار القلم – دمشق، 1981م، ص355–365 ؛ المعاضيدي، تاريخ الدولة العربية في الاندلس، ص149–156 ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم، ص245–251 ؛ الخزاعي، كريم عاتي، رضا، هادي عباس، محاضرات في تاريخ المغرب والاندلس، الجامعة المستنصرية، 2009م، ص100 .

(4) ابن بلكين، عبد الله بن باديس (ت: 483هـ)، التبيان، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، 2006م، ص98–99 ؛ ابن الخطيب، محمد بن عبد الله (ت: 776هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية – بيروت، 1424هـ، ج4/ ص304 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج2/ ص110–117 ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم، ص252 .

(5) لسان الدين، محمد بن عبد الله (ت: 713هـ)، العلل الموشية، التقدم الإسلامي – تونس، 1931م، ص22 ؛ بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: بيبه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، 1968م، ص320 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج2/ ص316–319 ؛ نصر الله، سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والاندلس، دار النهضة العربية – بيروت، 1985م، ص69–70 .

(6) السلاوي، أحمد بن خالد (ت: 1315هـ)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، العلل الموشية، ص33 ؛ محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ج2/ ص39 .

(7) ابن الابار، الحلة، ج ج/ ص98–100 ؛ لسان الدين، العلل الموشية، ص23 ؛ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4/ ص304 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج2/ ص318–319 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص72–74 .

(8) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4/ ص304 .

(9) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت: 630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية – بيروت، 1415هـ، ج8/ ص446 ؛ المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت: 647هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية – بيروت، 2006م، ص98 .

(10) المراكشي، المعجب، ص98 .

(11) ابن الابار، الحلة، ج2/ ص100 ؛ لسان الدين، العلل الموشية، ص34-36 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص79-81 .

(12) الحميري، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت: 900هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت، 1988م، ص289 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص83 .

(13) لسان الدين، العلل الموشية، ص39 .

(14) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8/ ص445- 455 ؛ المراكشي، المعجب، ص99- 103 ؛ ابن الابار، التكملة لكتاب العلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة – لبنان، 1995م، ج1/ ص29- 30 ؛ العميري، الروض القرطاس، ص287- 291 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص84- 94 .

(15) ابن بلكين، التبيان، ص134- 135 ؛ لسان الدين، العلل الموشية، ص47 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص94- 98 .

(16) ابن بلكين، التبيان، ص135 .

(17) ابن بلكين، التبيان، ص135 .

(18) ابن بلكين، التبيان، ص136- 146 ؛ لسان الدين، العلل الموشية، ص47- 50 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص106- 109 ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم، ص253- 256 ؛ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص321 .

(19) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ)، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر – بيروت، 1988، ج6/ ص249 ؛ السلاوي، الاستقصا، ج2/ ص55 ؛ السامرائي وآخرون، ص254- 255 .

(20) ابن بلكين، التبيان، ص182- 193 ؛ لسان الدين، العلل الموشية، ص50- 55 ؛ العجي، التاريخ الاندلسي، ص422- 423 .

(21) لسان الدين، العلل الموشية، ص51 .

(22) المراكشي، المعجب، ص122- 123 .

(23) نصر الله، دولة المرابطين، ص117- 127 ؛ المعاضيدي، تاريخ الدولة العربية في الاندلس، ص159- 160 .

(24) ابن بلقين، التبيان، ص204- 206 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص125- 128 .

(25) لسان الدين، العلل الموشية، ص72- 74 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص125- 128 .

(26) ابن بلكين، التبيان، ص204- 205 ؛ المراكشي، المعجب، ص103 ؛ ابن أبي زرع، علي (ت: بعد 726هـ)، الانيس المطرب في روض القرطاس في اخبار ملوك الغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور – الرباط، 1972م، ص154 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص125- 126 ؛ خليفة، حامد محمد، يوسف بن تاشفين، دار القلم – دمشق – بيروت، 2003م، ص343- 344 .

(27) ابن بلكين، التبيان، ص204– 205 ؛ المراكشي، المعجب، ص103 ؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص154 ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج4/ ص205 : عنان، دولة الإسلام، ج2/ ص345 .

(28) قبائل بني حلال كما وصفهم حسين مؤنس في حاشية كتاب ابن الكرديوس، تاريخ الاندلس، تحقيق: أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية – مدريد، 1971م، ص107 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص141 .

(29) من اعمال مدينة طليطلة وتقع في جنوبها الشرقي، وقد أشار العمري إلى قرية تسمى قنيشرة بالقرب من مدينة طليطلة. ينظر: صفة جزيرة العرب، تصحيح وتعليق: ليفي بروفنسال، دار الجيل – بيروت، 1988م، ص134 ؛ ابن الكرديوس، تاريخ الاندلس، ص108 .

(30) ابن الكرديوس، تاريخ الاندلس، ص107– 108 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج2/ ص371– 372 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص141– 142 .

(31) ابن الكرديوس، تاريخ الاندلس، ص109 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص142 .

(32) ابن عذارى، البيان المغرب، ج4/ ص44– 45 ؛ نصر الله، دولة المرابطين، ص143 .

(33) ابن الابار، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ص133– 134 ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج4/ ص49 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج3/ ص60 .

(34) ابن الابار، المعجم، ص134 ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج4/ ص49 ؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص159 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج3/ ص60 .

(35) ابن عذارى، البيان المغرب، ج4/ ص53– 54 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج2/ ص289– 291 .

(36) ابن الابار، الحلة، ج2/ ص248– 249 ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج4/ ص53– 54 ؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص168 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج2/ ص291– 293 .

(37) ابن عذارى، البيان المغرب، ج4/ ص55 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج3/ ص74 .

(38) ابن عذارى، البيان المغرب، ج4/ ص56 .

(39) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص160– 161 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج3/ ص75 .

(40) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص161 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج3/ ص75 .

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن أبي زرع، علي (ت: بعد 726هـ)، الانيس المطرب في روض القرطاس في اخبار ملوك الغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور – الرباط، 1972م.

2. ابن الابار، التكملة لكتاب العلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة – لبنان، 1995م.

3. ابن الابار، محمد بن عبد الله (ت: 658هـ)، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف – القاهرة، 1985م.

4. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت: 630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية – بيروت، 1415هـ.

5. ابن الخطيب، محمد بن عبد الله (ت: 776هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية – بيروت، 1424هـ.

6. ابن الكرديوس، تاريخ الاندلس، تحقيق: أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية – مدريد، 1971م.

7. ابن بلكين، عبد الله بن باديس (ت: 483هـ)، التبيان، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، 2006م.

8. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ)، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر – بيروت، 1988م.

9. بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: بيبه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، 1968م.

10. الحجي، عبد الرحمن علي، التاريخ الاندلسي، دار القلم – دمشق، 1981م.

11. الحميري، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت: 900هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت، 1988م.

12. الخزاعي، كريم عاتي، رضا، هادي عباس، محاضرات في تاريخ المغرب والاندلس، الجامعة المستنصرية، 2009م.

13. خليفة، حامد محمد، يوسف بن تاشفين، دار القلم – دمشق – بيروت، 2003م.

14. السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت، 2000م.

15. السلاوي، أحمد بن خالد (ت: 1315هـ)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، العلل الموشية.

16. صفة جزيرة العرب، تصحيح وتعليق: ليفي بروفنسال، دار الجيل – بيروت، 1988م.

17. عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الاندلس، مكتبة الخانجي – القاهرة، 1997م.

18. لسان الدين، محمد بن عبد الله (ت: 713هـ)، العلل الموشية، التقدم الإسلامي – تونس، 1931م.

19. المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت: 647هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية – بيروت، 2006م.

20. المعاضيدي، خاشع، تاريخ الدولة العربية في الاندلس، جامعة بغداد، 1988م.

21. المعجم في أصحاب القاضي الامام ابي علي الصفي، دار صادر – بيروت، 1885م.

22. نصر الله، سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والاندلس، دار النهضة العربية – بيروت، 1985م.